١٩

ظُفَار وعُمَان

لم تكن زيارة ظُفَار فى خط سير ابن بطوطة ، وإنما نزلها - فيما يبدو - على غير موعد، ولا نعتقد أنه كان يعرف ما يقصد إليه منها ، لأن هذا الرجل فى الكثير من مراحل رحلاته كان يسير بحسب ما تهوى الرياح لابحسب ما يهوى هو ؛ ولهذا فإننا نلحظ أنه يَهُشُّ لمقدمه إلى ظُفَار .

فهو يبدأ بذكر المسافات بينها وبين غيرها من البلاد ، وليست هذه عادته؛ فيقول إن بينها وبين عدن مسيرة شهر فى صحراء ، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً ، وهو يقول إن مدينة ظُفَار فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها ، والعمالة يراد بها هنا ما يُعرف «بالهنترلاند» أى : الأرض الداخلية الخصبة أو الغنية بالماء والموارد التى تُغذِّى مدينةً أو إقليماً ساحليًا.

وسوق البلد منفصلة عنها قائمة خارجها وهى لا تُعجب ابن بطوطة ، بل يقول إنها من أقذر الأسواق وأكثرها نتناً وذباباً لكثرة ما يباع فيها من الثمار والسردين ، وهو يُطرى هذا السردين ويقول : « إنه فى غاية السِّمَن».

« ومن العجائب أن دوابَّهم إنما عَلَفُها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ، ولم أرَ ذلك فى سواها » .

وقد سألت - فى إمكان هذا - رجلاً من البيولوجيين؛ فقال : إن ذلك

ممكن ، وإن آكلات العشب قد تغتذى باللحم - فى حالة الضرورة - طلباً للبروتين ، ولا بد أن يكون السردين فى هذه الحالة مجفَّفاً .

اهتمام أهل ظفار بالتجار القادمين إلى بلدهم

ويحدثنا ابن بطوطة عما يقدِّمه أهل ظُفَار من وجوه الإكرام للتجار ليجتذبوهم إلى بلادهم . وهو يُثنى على أهل ظُفَار ثناء جميلاً ويضيف : ومن الغريب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شئونهم؛ نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عيسى بن على ، كبير القدر كريم النفس ، فكان له جوارٍ مُسَمَّيات بأسماء خُدَّام المغرب ، إحداهنَّ اسمها بخيتة ، والأخرى زاد المال ، ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها » (ص ٢٥٢) .

وبعد أن يذكر وجوه تشابه أخرى بين المغرب وظُفَار يقول : « وهذا التشابه كله مما يقوِّى القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حِمْيَر » ، ومن المعروف أن بعض قبائل الصنهاجيين - من أمثال لمتونة ومَسُّوفة وجزولة وغيرها من القبائل التى أقامت دولة المرابطين - تزعم أن أصلها من حِمْيَر فى خبر طويل يتداوله أصحاب تاريخ المغرب والأنساب من العرب .

ومن طرائف ما يحكى عن ظُفَار إضراب الجند عن العمل إذا تأخرت رواتبهم ، فيعتزلون فى تربة سلف السلطان المغيث .

وعلى مسافة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهى منازل عاد ، وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيَّادى السمك .

قبر هود ابن عابر

وفى الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر - عليه أفضل الصلاة والسلام . ويذكر أنه بمسجد دمشق موضع آخر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر . ويرجح أن قبر هود الحقيقى فى الأحقاف ، لأن هذه بلاده - والله أعلم.

ويقول ابن بطوطة إن التنبول هناك ، ثم يتحدث عن التنبول بتفصيل ، وهو نبات يشبه القات ، ولـمَّـا كان حديث ابن بطوطة عن « التنبول » سيطول من الآن فصاعداً فلنذكر طرفاً مما يقوله عنه هنا :

قال : « والتنبول شجر يُغرس كما تُغرس دوالى العنب ، وتُصنع له معرَّشات من القصب كما تُصنع لدوالى العنب ، أو يُغرس فى مجاورة شجر النارجيل، فيصعد فيها كما تصعد الدوالى وكما يصعد الفِلْفل . ولا ثمر للتنبول ؛ وإنما المقصود منه ورقه ، وهو يشبه ورق العُلِّيق ، وأطيبه الأصغر وتُجتنى أوراقه فى كل يوم ، وأهل الهند يعظِّمون التنبول تعظيماً شديداً .

وإذا أتى الرجل دار صاحبه ، فأعطاه خمس ورقات منه - فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها !

وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفَوْفَل ، وهو يشبه جوز الطِّيب ، فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً ، ويجعله الإنسان فى فمه ، ويلوكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من النورة ، ويمضغها مع الفَوْفَل ، وخاصيته أنه يطيِّب النكهة ، ويذهب بروائح الفم ، ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ، ويُفرح آكله ، ويُعين على الجماع ».

ومن ظُفَار ركب البحر إلى عُمَان ، فلم يخترق أرض ظُفَار ولا جبال عُمَان ، وكان ركوبه فى مركب صغير لرجل يُعرف بعلى بن إدريس المصيرى ، من أهل جزيرة مصيرة.

وفى اليوم الثانى لركوبه ينزل بمَرْسَى حاسك ، وفيه ناس من العرب صيَّادون للسمك ، وعندهم شجر الكندر ، وورقه إذا شُرِط خرج منه صمغ يتحول إلى اللُّبان .

ومن مَرْسَى حاسك ساروا بحذاء البحر أربعة أيام حتى وصلوا إلى جبل لَـمْعَان وهو فى وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير يجتمع من المطر .

ثم ركبوا البحر مرة أخرى ، فوصلوا إلى جزيرة الطير والمراد إحدى جزر كوريا موريا ، فيها طيور صغيرة تشبه الشقاشق ، وهى مثل الحمام ، وقد أنكر ابن بطوطة أكل الناس منها دون تذكية .

طعام الناس في تلك المنطقة : التمر والسمك

وكان طعام ابن بطوطة هناك التمر والسمك ، وأكثر السمك عندهم صنف منه يُسمَّى بالفارسية : شير ماهى ، ومعناه - كما يقول - أسد السمك ، لأن شير هو الأسد و«ماهى» السمك ، وهذا مَثَلٌ من حرص ابن بطوطة على ترجمة ما يذكر من ألفاظ فارسية أو تركية أو هندية .

ثم وصلت سفينة ابن بطوطة إلى جزيرة مصيرة ، ولم ينزلوا بها لبعد مرساها عن الساحل ، وإنما نزل صاحب المركب ، لأنه من أهل مصيرة فزار أهله وعاد.

ثم ساروا فى البحر قدر يوم وليلة ، فوصلوا إلى مَرْسَى قرية كبيرة على ساحل البحر تُعرف بصور ، ومنها رأى مدينة قَلْهَات فى سفح جبل ، فَخُيِّلَ إليه أنها قريبة . وكان ابن بطوطة قد كره صحبة أهل المركب ، فقرر النزول إلى البر والتوجُّه إلى قَلْهَات ، ففعل .

وصحبه فقيه هندى يُسمَّى خِضْراً ، وترك بعض أشيائه فى المركب ، ليأخذها عندما يلحق بهم ، واكترى حَمَّالاً دليلاً لكى يحمل له أثواباً كان حريصاً عليها ، وقد أراد ذلك الدليل الهرب بالأثواب ، ولكن ابن بطوطة أظهر الحزم : « وشددتُ وسطى ، وكنت أهزُّ الرمح فهابنى ذلك الرجل».

قلهات

وقد لقى ابن بطوطة تعباً شديداً حتى وصل إلى المدينة وهى قَلْهَات، وقد أكرمه حاكمها ، وأضافه ستة أيام وهو لا يقدر على المشى ، لأن نعله ضاق على رجله لطول المشى، «حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها»! (ص ٢٦١) .

ويمتدح ابن بطوطة جامع قَلْهَات ويقول إن حيطانه بالقاشانى وهو

شبه الزليج، وهو مرتفع يُنْظَر منه إلى البحر والمرسى ، وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ، ويقول إن معنى بيبى عندهم: الحُرَّة ، وهذا هو تفسير ذلك الاسم الشائع بين نساء الخليج . وهم يكثرون من أكل الأرز ، وهو يأتيهم من الهند . ويقول إن كلامهم ليس فصيحاً مع أنهم عرب، وأهلها خوارج ، ولكنهم لا يصرِّحون بمذهبهم خوفاً من أميرهم قطب الدين تَمَهْتَن ملك هرمز وهو من أهل السُّنَّة .

بلاد عمان

ثم يصل إلى بلاد عُمَان بعد مسيرة ستة أيام فى صحراء ، ويقول إنها خصبة، «ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس ، ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد - مدينة نزوة [1] - وهى مدينة فى سفح جبل تحفُّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظَّمة نقية ، وعادة أهلها أنهم يأكلون فى صحون المساجد ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبداً .

نزوى

وهم إباضيَّة المذهب ، ويصلُّون الجمعة ظهراً أربعاً ، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ، ونثر كلاماً شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعلىّ ، وإذا أرادوا ذكر علىّ - رضى الله عنه - كفُّوا عنه فقالوا : ذُكِرَ عن الرجل أو قال الرجل ، ويرضون عن الشقىِّ اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه : العبد الصالح قامع الفتنة » (ص ٢٦٣).

وهذا الذى يذكره ابن بطوطة عن إباضيَّة عُمَان يدعو إلى التفكير ؛ فإن الإباضيَّة يقيمون الجمعة كما يقيمها السُّنَّة ؛ لأن لهم إماماً ظاهراً يعيشون فى حكمه ، ومِنْ ثَمَّ فلا وجه لتعطيل الصلوات العامة بحجة غياب الإمام كما تفعل بعض فرق الشيعة . وربما كان أولئك الإباضيَّة الذين يحدثنا عنهم ابن بطوطة هنا كانوا فرقة خاصة منهم ، فقد ذكر الشهرستانى والبغدادى فرقاً كثيرة من الإباضيَّة مثل الحارضية والحفصية واليزيدية والوهبية

(١) يرد اسم هذا البلد بالرسمين : نزوى ، نزوة .

والنكارية ، والكثير من فرق الإباضيَّة من لا يَعْرِف عقائدها وعباداتها إلا أصحابها.

وخير مرجع لمعرفة هذه العقائد كتاب «كشف الغُمَّة الجامع لأخبار الأُمَّة» .. وهو كتاب جيد لم يُنشر إلى الآن محقَّقاً تحقيقاً علميًّا .

وعلى أيِّ حال فقد كانت إمامة إباضيَّة عُمَان دائماً فى الجبل الأخضر فى داخل عُمَان وقاعدتهم نزوى ، وأما السواحل فقد كانت فى الغالب سُنَّة .

* * *